

التنمية اللغوية : من أين تبدأ؟

أ.د. عبد الجليل مرتاض

جامعة تلمسان

– استعداد العربية الفطري للحدث

دأبت العربية منذ معرفة عالمها اللساني التواصل بها كظاهرة طبيعية للتواصل بها في حقبة، وبين أجيالها، على استثمار ما تتوفر عليه من بنات داخلية أسوة بغيرها من اللغات الإنسانية التاريخية والحضارية التي تركت أثلامها ماثلة على مدى آلاف السنين، ولم تكن اللغة العربية، فيما نعلم، وفي عهدها السحيق، تفتقر إلى ما كان يحيط بها من لغات راقية جداً، لتؤدي وظيفتها الاجتماعية، والأدبية، والفنية، والتكنولوجية البدائية أكمل أداء، وبأبلغ بيان.

إن المطلعين على المستويات الخلفية البعيدة للغة العربية، وفي مقدمة هؤلاء علماءها، لا يختلفون أدنى اختلاف، في أنها تحوي في بطونها تراثاً لسانياً محيراً، ويدعو في كثير من الأحيان إلى التساؤل الذي لا يخلو من إعجاب، مهما كانت صلابة موضوعية المرء وحياده النزيه المطلق، لأن ما تكتنزه من مختلف المصطلحات الوقتية، ولاسيما السبل الغربية التي تعبر بها بطلاقة، ورشاقة، ودقة، عما تريد أن توصله من رسائل دلالية وإعلامية، لتجعل دارسها المتعمق يتفاعل رغماً عنه، وقد أيقن أنها أبلغ من بليغ فيها، وأبعد تحضراً ممن

يتكلمها، وأقوى سلطاناً من مستعملها والسابح في فضائها المجهولة بدايته، المطلقة نهايته.

ولعلك تخرج أحياناً عن طورك، وتطرح سؤالاً لا يخلو من غرابة وإعجاز على نفسك دون قصد معين منك: هل كان ذلك المجتمع العربي القديم - خاصة قبل مجيء الإسلام - في حاجة حقيقية إلى كل ما كانت تكتنزه من مداليل، وثروات قاموسية، وقواعد نحوية، وصرفية، وبلاغية، وخاصة إلى تلك الليونة، والدلالة على أي نشاط من عدمه فيها؟

نشير السؤال السابق، ونحن نعتقد اعتقاداً بعيداً عن أي عاطفة أو غرور، بأن ما كانت تزخر به هذه اللغة من مصطلحات أصيلة لا تحزنُ أمام العربية الآنية لبعثها واستثمارها في مجالات لا تستغني عنها استعمالنا اليومية، وكتبنا المدرسية، وورشاتنا الصناعية والفنية، ومخابرنا العلمية والطبية، بل وفي ممارساتنا المهنية الخاصة منها والعامة.

وغالباً ما يُتهم من يُدلي بمثل هذا الطرح الإيجابي إزاء اللغة العربية، بل أصبحنا نسمع أصواتاً تتعالى أحياناً ممن كدّروا صفو حليها، أو ممن رضعوا حليباً غير حليها، تدعو إلى القطيعة التاريخية، والانطلاق مما يسمونه عصرنة وحدثة وعولمة وأسماء أخرى لا يختلف لبيب معهم مبدئياً فيها، ولربما سمعت أصواتاً أخرى تردّد ما ردّد شعراء جاهليون منذ زهاء ألفي عام من أننا لا نقول إلا قولاً مكروراً، وما هذا إلا حق يراد به باطل، لأن اللغة أية لغة ليست تقليداً أو وقفاً على من تقدم دون من تأخر، فاللغة هي الوعي الخالد الذي يصل ماضي السلف بحاضر الخلف، والرباط الروحي الذي يجمع بين متكلمين قضوا نحبهم، ومتكلمين آخرين ينتظرون.

من تقدمنا متواصلاً باللغة العربية، كان يتداول مصطلحات طبية وتطبيقية في العلاج، والولادة، والتمريض، ومصطلحات زراعية عامة في

تبدأ؟ ...

البذر، والحصاد، والتسميد، ومصطلحات في الري وما يتصل به من آبار وأدوات تعبر تعبيراً دقيقاً وعجيباً عن كل وظيفة على حدة، ومصطلحات أخرى في الحلاقة وتسريح الشعر وضمه وإرساله، بله حقولاً دلالية عامة وخاصة أكثر من أن يوماً إليها هنا.

قبل أن نطلق حكماً مشوباً يتعسف نتيجة لمؤثرات خارجية قوية أو لتحقيق رغبات سيكولوجية ضيقة، فإنه يجب أن نلتفت إلى ما تزخر به اللغة العربية الكلاسيكية من حقول دلالية جاهزة تتصل اتصالاً مباشراً بواقع ممارساتنا المهنية والوظيفية، واقع لم يُعط نصيبه الذي يستحقه من بني جلدتها أنفسهم، إلا من فئة قليلة متنورة، الأمر الذي جعل أصابع الاتهام توجه إلى هذه اللغة، تارة توصف بقصورها عن أداءات العصر، ومرة بعجزها عن مواكبة ما يبتكر ويستحدث ويصنع ويزاول لدى المجتمع المرغم بالتعامل والتعاطي إعلامياً وحاسوبياً وتكنولوجياً وعلمياً مع ما يعيشه ويلمسه فعلياً، فتتعالى صيحات وشكاوى من هذا البلد العربي أو ذاك

تعالياً متطرفاً تطالب بالتأني

في التعريب الشامل، والاستمرار في التغريب، وهذه الأصوات تدرك جيداً أنّ الإشكال لا يكمن في لغتهم العربية بقدر ما يكمن في تبعيتنا للاقتصادية، والعلمية، والطموح المعكوس، والاتكال على كل ماهو جاهز، وتعطيل العقل العربي، ولذة الاستهلاك الغيريّ الفاحش، والعمل بما وُهبنا من ثروة، لا بإنتاج الثروة، حيث أصبح من الميسور لنا أن نقفني ما نشاء، ونحن نعلم أن هذه المقتنيات بملايير الدولارات لن تعود فعالة ولا صالحة بعد سنين لنضطر إلى بدائل سواها، وهكذا دواليك، مما يعني أن ثورتنا الأكثر جدوى ودواماً وسيادة هو الخلق والإبداع بإرادة عربية لا مفر منها إن

عاجلاً أم آجلاً، وباللغة العربية التي تعدّ من أكثر اللغات استعداداً وطواعية أمام كل ما جدّ ويجدّ من حولها.

ونشير إلى أن اللغة العربية، وهذا لا يغرب عن أحد، سبق لها أن استوعبت كتاب الله، وعلوم شعوب مرموقة بحضارتها وثقافتها، غير أن تنمية اللغة الأكثر فعالية ينبغي في تقديرنا، أن يُحدّث إحداثاً من الداخل، قبل أن نفكر في ملاسته من الخارج، والذي يدعونا إلى الترجمة بشكل مفرط لم يغب عنهم أن كل لغة وما تحويه من خصائص داخلية، وطاقات لسانية ذاتية، فالمختصون لم يألوا جهداً في الحرص الشديد لترجمة معاني القرآن الكريم، غير أنهم لم يفلحوا في ترجمته ترجمة تعادل نصه الأصل، بل يستحيل أن تترجم المعاجم العربية الأصيلة ترجمة صحيحة إلى لغة أجنبية، إذ كيف تترجم - مثلاً -:

- "المخاصرة" أو مرادفها "المخازمة"، وهي التي تعني أن يأخذ صاحبك في طريق، وتأخذ أنت في طريق آخر، على أن تلتقيا معاً في مكان متفق عليه؟
- وكيف تترجم في الحالة المدنية "بنو علات"، إذا كان أبوهم واحداً، وأمهاهم شتى؟

- كيف تترجم "عنّين" ومثله "العجيز"، وهو الرجل الذي لا يقدر على إتيان النساء، أو لا يشتهي النساء، إلا إذا تحايلت بنعت ومنعوت كأن تقول: (Impuissant sexuellement).

- وكيف تترجم "المقلّات"، وهي المرأة التي لا يعيش لها ولد، إلا إذا احتلت، وترجمتها بجملة واسعة؟

- وإذا وقفت على بيت لجاهلي (أوس بن حجر):

والفارسيّة فيهم غير مُنكرّة وكلّهم لأبيه ضيّزٌ سلفُ

تبدأ؟ ...

- فكيف تترجم "ضَيَّنَ"، وهو من يزاحم أباه في امرأته، أو يزاحمك في شيء آخر مِلْكٍ لك أو تبتغيه، علماً بأن الضيَّن اسم صنم أيضاً؟
- وكيف تترجم "أشْبَلت المرأة"، إذا صبرت على أولادها فلم تتزوج بعد بعلها؟

ونحن لسنا بهذه الأمثلة البسيطة التي ضربناها مثلاً نتبحر، بما للغة العربية، وبما ليس لها، لأن مجرد التفكير في هذا التبجح الفارغ من أي منطق يضر اللغة العربية أزيد مما يفيدها في وقتها الراهن، وهي من أشد اللغات "الحية" فقراً إلى ألوف من المصطلحات الثقافية والتقنية والعلمية الحديثة دون أن نحملها أي ذنب فيما حدث لها حتى وجدت نفسها، وهي تعيش العقد الأول من الألفية الثالثة، هكذا، ولكن، الذي يتحمل وَزَرَ تخلفها الغيابات الوظيفية لاستعمالها في مجالات حيوية كعالم الإعلام الآلي، والاتصالات الشامل السليم، والذرة، والطيران... ونشر إبداعاتها بلغتها الأصل.

إن لغتنا العربية الراهنة تعيش وضعاً نظرياً لا تنافس فيه من اللغات الأخرى، إذ مَنْ منا يجرؤ على إنكار الجهود المضنية التي بُذِلَتْ من مجامع، وهيئات في سبيل ترقيتها، حيث أصدرت كرايس، ومجلات، ومجلدات كُتِبَتْ لكل جانب من جوانبها التقنية أو العلمية، حتى إنها لُتْبِعَتْ بأثمانٍ زهيدة على أرصفة دمشق؟ ومما يلاحظ على بعض ما وَقَفْنَا عليه من هذه المصطلحات الضخمة أَنَّ جلها معرَّب أو منحوت أو مترجم، وَقَلَّ ما وَقَفْنَا مصطلحٌ مشتق من الوعاء الأصيل للغة العربية، وخاصة في الميكانيكا (علم الحيل)، والجيولوجيا (علم الأرض)، والفيزياء، وأهم من كونها صيغت بهذا القالب أو ذاك أنها لا تبرز مهمة، إن لم نقل اندثر معظمها

قبل استعماله لانعدام التنسيق بين المنظرين من جهة، وغياب هيئة عريّة مخوّلة لمتابعة ومراقبة التنفيذ من جهة أخرى، علاوة على غلبة الشبح السياسي الظرفي على التعاملات العربية.

في لغتنا العربية ألوف من الكلمات المشحونة بدلالات سبق لها أن نهضت بها أوضح نهوض، ولم تغلق أبوابها الدلالية لتشحن بدلالة بديلة يمكن لها أن تضطلع بوظيفتها الجديدة في المخبر، والحقل، والمعمل، ومن العار أن نشير إلى التجارة، والإدارة، والاقتصاد، والرياضة، الحوار الدبلوماسي،...

ومما قد نراه مناسباً هنا أن نشير إلى أن الكلمات "تموت" إلا في حالة واحدة، وذلك حينما لا توظف توظيفاً مطرداً يتماشى مع ما يُستجدُّ في محيطها أو في العالم حولها، لأن خلق أو نحت أو اشتقاق أو تعريب أو ترجمة كلمة أمر سهل، لكن الفجوة الهوة تكمن في صعوبة فرض استعمالها، ومن ثمّ فإن العبرة بالنسبة للغة من حيث قوتها أو ضعفها، سيادتها أو تبعيتها في الاستعمال، ولا شيء غير الاستعمال، ولكي يضمن توظيف كلمات تبعث من التراث اللغوي الأصيل، أو تولد ولادة جديدة من هيئات مخوّلة أكاديمياً وعلمياً، ينبغي أن تُعطى صلاحيات أوسع لهذه الهيئات على مستواها المحلي والإقليمي، ومما نراه هنا أيضاً أن الإشكال الأعظم لا يكمن في اختلاف المصطلح في اللغة العربية بين إقليم وإقليم، بل في عدم استعماله البتة.

ما هو ذنب اللغة العربية إذا كانت المئات الآلاف من الكلمات فيها لا يوظفها أبناءها ومتكلموها؟ وما ذنب العربية إذا كان الناس لا يعرفون من "بَعَى" إلا "البَغْي" بمعنى الظلم، و"البَغْي" بمعنى البغاء والفجور، في حين أن طبيباً عربياً واحداً أو ممرضاً ربما لا يعرف منه "بَعَى

تبدأ؟ ...

الجُرح بَعِيًّا" إذا ترامى إلى الفساد؟ وما ذنب هذه اللغة إذا كانت المرأة العربية الحائض تشدّ وسطها بشيء ما عادة ما تسمّيه حزاماً أو في أبعاد الحالات خرقه إلا أن تُسمّيه "لِحْماً" كأنه شُبّه بلجام الفرس، ومنه قيل: "تَلَجَّمت المرأة" إذا شدت اللجام في وسطها؟ وما ذنب العربية إذا أضحى العربي يسمّي ما يرتديه وقايةً من المطر أيّ اسم، إلا أن يقول له "اللُّبَّادة"، وهو المسمّى الأصيل...؟

لا تسود لغة من اللغات إلا بالاستعمال، وليس بالتباهي بما تكثره - كاللغة العربية - من مائة وخمسين اسماً للأسد، ومائتي اسم للحية، وخمسمائة للأسد، وسبعين اسماً للحجر... لسنا بحاجة إلى أكثر من اسم واحد، ما دام الأسد يختلف عن الحية، وما دامت (الحية) تختلف عن الحجر...

وما أشير إليه آنفاً لا يفيد من قبلنا أن أية لغة إنسانية، ومنها العربية، محصّنة تحصيناً كاملاً ومثالياً، لأنه لا توجد لغة من اللغات الألوفا على كرتنا الأرضية نموذجاً مثالياً للغة أخرى، فاللغات كلها متساوية، بما في ذلك اللغات البدائية في غابة الأمازون، وأدغال إفريقيا، ولغة الإسكيمو، إذ كل لغة بحاجة إلى نظيرتها الأخرى التي تسبقها اختراعاً وثقافة، فينشأ بينهما ما يدعى عادة الاقتراض أو الاستعارة، لأن اللغات كالقبائل والشعوب يحتاج بعضها إلى بعض، ولا تتكامل إلا بغيرها.

غير أنه مما هو غريب حقاً أن مصطلحات دلالية متعددة نجدها حية ومستعملة استعمالاً عصرياً في لغات أجنبية أو "حية"، في حين أنه قلما نعثر لها على أثر في عريبتنا العصرية، ولربما وظفت فيها توظيفاً مشوهاً،

خاصة في بنياتها الصوتية، وسوابقها، ولواحقها دون أن يخامرنا شك في أنها أجنبية لبعدها الصوتي وغرابتة عن الحس الفونيتيكي الأصل في العربية، إذ من هذا العربي العامي الذي تقنعه بيسر أن مصطلحات فرنسية مثل:

– Goudronnage قَطْرَنَة أو تَزْفِيت الطريق.

– Goudronneuse مُقَطِّرَنَة أو آلة القَطْرَنَة.

– Goudronneur مُقَطِّرُ عامِل).

ليست إلا من الوعاء الأصيل للعربية السائدة فصاحة وعاميّة، قَدَمًا وحادثةً، ما دامت أنها أخذت من القَطِرَان العربية، وهو ما يتحلّل من شجر الأَبْهَل¹؟، أي مادة التَقَطُّرُن (Goudron) الفرنسية تحولت تحوّلًا صوتيًا:

– قطران ← G بدل القاف، والبدال بدل الطاء (لأن القاف والطاء غير موجودين فيها).

ومَنْ مِنَ المختصّين من لا يعرف أن كلمة Tarif المستعملة في اللغات الأوروبية بما فيها الروسية حُرِفَت من الكلمة (العربية)، ليقولوا بعدها: Tarification و Tarifaire و Tarifer،...؟ لأن الكلمات المستعارة قد تبقى ثابتة بشكلها الأجنبي مثل DOCK (مرفأ أو حوض سفن) التي دخلت الفرنسية بشكلها الإنجليزي، غير أنه في الغالب الأعم أنها تُعَدَّل تماشيًا مع طبيعة النطق الصوتي للغة المستعيرة، مثال ذلك أن Packet-Boat (سفينة نقل) الإنجليزية حورت في رسمها ونطقها في الفرنسية Paquebot، ومنها كلمة مخزن العربية التي تحولت في الفرنسية إلى Magasin،... الخ.

ولا يفوتنا أن نؤكّد ما ألحنا إليه قبل حين بأننا لا نتبجّح بما قدمته اللغة العربية من مصطلحات وألفاظ ثقافية للغات إنسانية قاطبة، وهي اليوم من أشد اللغات العالمية احتياجاً إلى ملء فراغها الهائل، ودرء فقرها المدقع في مجال العلم

تبدأ؟ ...

والتكنولوجيا والاتصال الحديث، ولكن إشارتنا العابرة أرادت أن تذكر المعينين الراغبين في توسيع استعمالها أو تعميمه بأنه بإمكان بعث ألوف من المصطلحات الأصلية فيها واستثمارها في العربية الحديثة، ولعل الأهم مما ألمح إليه أن نكون على وعي تام بأصلها العربي من الأجنبي فيما نستخدم من كلمات ومصطلحات.

– أولوية التنمية الداخلية على الخارجية في العربية

ومما يترأى لنا أن عصنة لغة مشترط فيها أن تمرّ عبر تنميتين: تنمية داخلية، وهو الأصل، وتنمية خارجية، وهو الفرع، فالتنمية الداخلية كل ما كان ذا صلة بالقوى الفيزيائية الطبيعية أو الطاقة الخلاقة الكامنة كموناً لا منتهياً في اللغة، وهذه التنمية لا تتخذ مساراً واحداً، بل مسارات عدة، لأن طاقة اللغة الخلاقة طاقة لسانية متجددة بما تملكه من عناصر سبك وبناء فيها دون عناء ولا عجز، وكل لساني يعرف ما المقصود بهذه العناصر التي لا تخضع لتكلم أم مستعمل بعينه، فالتكلمون بلغة كلهم شركاء فيها حتى وإن لم يشعروا شعوراً متشابهاً بصيرورة نموها وتطورها وتبدّلها وراثتها أو فقرها، ولن يكونوا إلا كذلك ما دام أنهم يتواصلون باللغة ذاتها، ولا يتكلمون كلاماً متشابهاً بها.

وفي تقديرنا أن لغة كالعربية أولى لها أن تتطور من الداخل قبل أن تتطور من الخارج، فهي ليست قائمة بذاتها عن كل ما هو كيان خارجي، أعني أنها تزخر بتراث لغوي وأدبي ونص قرآني ثري يغنيها بنسبة كبيرة عن اللجوء في كل محطة من محطاتها التنموية إلى كل ما هو خارجي، فلغتنا بضاعة كاسدة في غيرها، ولكنها رائجة بذاتها، بدليل أن الناس

الذين التفتوا إلى تنمية لغتهم في آسيا، وأوروبا، وجدوها أداة طيعة زودوها من الخارج بمئات وألوف من الألفاظ الحضارية والثقافية، وهي الآن تنافس أحدث لغة وأوسعها انتشاراً، إلا أن ظروف اللغات تختلف من بلد إلى بلد، ومن حضور إلى غياب، ومن تهئية بنيوية كاملة إلى تهئية هشة أو منعومة، ومن ثم فإن اللغات التي تعتمد على تنميتها من الخارج اعتماداً فاحشاً، إن لم تكن فقيرة في طاقتها اللسانية الداخلية، فلا أقل من كونها عالية على اللغات الأخرى الأقرب منها سلاله وحتى الأبعد عنها أرومة، مثال ما نحن فيه ما كشفته "الحسابات بالنسبة للغة الألبانية، إذ تبين أن 430 كلمة فقط من بين 5140 كلمة هي كلمات مشتقة من الوعاء الأصيل للغة، أما الكلمات الباقيات فكلها كلمات دخيلة مقتبسة من لغات أخرى، واقتبست اللغة الكورية ما يقرب من 75% من مفرداتها من اللغة الصينية، واقتبست اللغة الإنجليزية الحديثة ما بين 55-75% من مجموع مفرداتها من اللغتين الفرنسية واللاتينية وغيرهما من اللغات الرومانية"².

والعامل الداخلي هو الذي يبرز الطاقة اللسانية الخلاقة في أي لغة، فالمسميات فيها لم تكن مميزة ما بين مذكر ومؤنث، ومفرد ومثنى وجمع، وجمع ومذكر سالم، وأفعال، وأسماء، واشتقاقات، وصفات، وأوزان، وضوابط،... فالإنسان لا يتصرف في اللغة من الخارج إلا لكونه متكلماً أو مستمعاً، أما اللغة فهي شيء آخر، وما من شك في أن ظهور الكتابة كان صدمة لهذه الطاقة اللسانية الخلاقة، لأنه جعل نهاية لتفتتها، وحداً لذكائها الطبيعي، فلا هي استطاعت أن تجاري نموها الآلي، ولا تركتها وشأنها، لأنها لا تقوم لها قائمة بدونها، وربما لم تكن الكتابة وحدها تتحمل هذا القهر للغة الشفهية،

تبدأ؟ ...

فالنصوص بصيغتها المتواضع عليها كان لها دورها الأساس في ردع مدّها الذي لا ساحل له.

– للغة علة داخلية للتغيير

وربما كان روبر جاك تورغو A. Robert Jaques Turgot الفرنسي (1781م) من أبرز من استهدف "اللغة في الصميم أي في نظامها الوظيفي الداخلي، حيث بيّن هذا الرجل بأنه توجد علة داخلية Principe interne للتبدل أو التغيير داخل لغة، مما يدل على أن اللغة ليست متحولة فقط بوساطة الظواهر الخارجية ذاتها، بل لأنها تتحول من الداخل حسب القوانين الخاصة بها"³، وهكذا أصبح الدارسون يعيدون النظر في آرائهم السابقة، خاصة بعد سطوع اللسانيات التاريخية، للتحقق من أن "التغيير الذي يحدث في اللغات ليس مردّه إلى الإرادة الوحيدة الواعية للناس فقط، بل يرجع كذلك إلى استجابة تقتضيها علة داخلية، وهكذا فإن معظم التحولات التي تتم في اللغات يقع بمعزل عن الوعي للأفراد، أي ما يقع ليس من بنات نتيجة قرارات نحويين أو رجالات سياسيين، وإنما هو نتيجة طبيعية للغة في حدّ ذاتها"⁴.

ولاحقاً وقف لسانيون زوّاد على حقيقة أن لغتنا بنية قائمة بذاتها، وكل قاعدة من قواعدها تمثل تنظيمياً ضمنياً وواقعاً خاصاً بها، وهي بهذا الاعتقاد ليست قابلة وحسب الإبداع، بل هي مصدر لكل عملية إبداعية، والمبدع العظيم من رزق حظاً أعظم في مغازلتها وامتلاك ناصيتها.

وانطلاقاً من الإقرار بأن اللغة تنظيم قائم بذاته، انبرى دي سوسور إلى أن يميز بين اللغة من جهة والكلام المتداول من جهة أخرى، والشيء

نفسه أقدم عليه إدوارد سابير حين فرّق بين ما أسماه النموذج أو القالب Pattern والواقع الكلام، والصورة ذاتها نجدها لدى تشومسكي الذي حدّد أبعاداً تقديرية بين الكفاءة أو الملكة الفطرية والأداء الكلامي المؤدّي أو المحقّق على لسان الفرد، وقاد هذا التمييز الثنائي لسانين إلى تحديد ماهية "البنية" في اللسانيات، ومن هؤلاء هلمسليف الذي حدد مجال اللسانيات البنيوية⁵ سنة 1944 بقوله: "نفهم بالألسنيّة البنيانية" مجموعة الأبحاث التي تتركز على فرضية تنص "على أنّ بالإمكان، من الناحية العلمية، وصف اللغة من حيث هي، بصورة أساسية، كيان مستقلّ مكوّن من الارتباطات الذاتية أو بكلمة واحدة، من حيث هي بنية، وإن تحليل هذا الكيان يتيح بصورة دائمة، لحظ أجزاء يتحكم بعضها ببعض، ويرتبط كل منها بأجزاء أخرى، ولا يمكن تخيلها أو تحديدها من دون هذه الأجزاء الأخرى، فموضوع البحث يرتدّ إلى شبكة من الارتباطات عبر النظر إلى القضايا اللغوية من حيث هي قائمة بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر"⁶.

ومما ذهب إليه بنيامين لي ورف، وقد يكون محقّقاً في ذلك، "أن لغة الأم تحلل لنا العالم وفق طريقتها الخاصة وتفرض علينا جميعاً هذا الطراز من التحليل وإدراك العالم"⁷، مبيناً أن الناس "لا يعيشون فقط في نطاق عالم الأشياء الذي يحيط بهم وفي نطاق عالم الحياة الاجتماعية، بل يعيشون أيضاً في نطاق عالم لغة الأم"⁸، لأننا نبنى العالم الذي يكتنفنا ونكيّفه وفق عالم اللغة، إلى درجة إطلاقه أننا أسرى الألفاظ، بل ذهب إلى حد أبعد بإشارته التي تبدو -مبدئياً- غريبة حين سلّم بأن كل لغة لها ميتا فيزيقيا خاصة بها⁹.

تبدأ؟ ...

ومما سجّله أيضاً بنيامين لي ورف WHORF أن البنية اللسانية لكل لغة "لا تكوّن فقط الأداة التي تتيح التعبير عن الأفكار، وإنما تحدّد شكلها وتوجّه نشاط الفرد العقلي وتقوده وترسم الإطار الذي تتحلل فيه تحاليله ومشاعره وشميلة كل الانطباعات في ذهنه، وليس صياغة الأفكار مساراً مستقلاً وعقلياً بحسب مفهوم هذه العبارة القديم، ولكنها مرتبطة ببنية قواعدية محدّدة"¹⁰.

وبالنظر إلى وجود مبدأ التغيير ذاتياً داخل لغتنا بمعزل عن أي مؤثر خارجي كلما تغيرت قوالها باطنياً، فإننا رأينا أن تودوروف يقول بهذا الخصوص: "إن نسب لغتين "أ" و"ب" لا ينطوي على تشابههما، فلغة (ب) يمكن أن تكون مختلفة جذرياً عن لغة (أ) مع أن الأولى (ب) منحدرّة من (أ)، وفي سالف الزمان، كان البحث في الأنساب اللسانية لا ينجز إلا بمعية البحث في تشابهات، وبالعكس كان يستخدم الاختلافات لمقاومة فرضية هذا السبب، إن الاعتقاد بالتغيير الطبيعي يقودنا على عكس هذا إلى أن نبحت حجة القرابة داخل هذه الاختلافات نفسها"¹¹.

وهذه الطروحات التي وقف عليها مختلف اللسانيين المحدثين تقودنا إلى تفكير ملىّ، ووقوف طويل، لنخرج منهما في النهاية بنتيجتين:

— أولاًهما أن اللغات لا تتغير في كل حال وفق إرادة بشرية واعية، ولكن وفق ضرورة داخلية أيضاً لا تستوعبها في حينها، أي أن لغتنا بقدر ما تُحوّل تارة أخرى، وهذه الأطروحة صارت أكثر قبولاً عندما شرع اللسانيون يميزون بين علاقيتين ممكنتين بين كلمة a لعصر A، وبين كلمة b مثيلة لعهد B لاحقٍ إذا صيغت b بوعي تام على غرار نموذج a، أي هذا اللفظ مستعار مبتعث من حالة لغة ماضية، ككلمة Hôpital (مستشفى)

الفرنسية، والتي صيغت في عصر معين للكلمة اللاتينية Hospital، وبالمقابل تكون هناك وراثه إذا كان المرور أو الانتقال من A إلى B غير واع، مما يذهب بنا إلى القول بأن كلمة قد تأتي متباينة لنظريتها بعامل الوراثة، وهذا يسلم حتماً بوجود أسباب طبيعية للتغيير اللغوي¹².

– وأخراً أن ما يحدث من تغيير لساني يُعدّ منتظماً، ويحترم التنظيم الداخلي للغات، ولا يتم بأي طريقة كانت، مما جعل اللغويين منذ القرن الثامن عشر، وخاصة في القرن التاسع عشر، ينظرون إلى التغيير اللغوي الداخلي كنظرية عالم الكيمياء حين يمزج من L'alchimie (الكيمياء القديمة) إلى La chimie (علم الكيمياء الحديث)¹³، ويحدث كل هذا دون أن يكون للمتكلمين أي إحساس بأن اللغة التي يتكلمونها وتُتكلّم حولهم تتوقف من أن تبقى مطابقة لنفسها كما كانت من ذي قبل¹⁴.

– التعريب عامل داخلي في التنمية اللغوية

ولا يمكن أن نستمر في فكرة جزئية الحديث عن التنمية اللغوية الذاتية أو الآلية، أي ذلك التحرك الديناميكي المنبثق من ذات اللغة نفسها دون تقاطع ولا تفاعل مع أية لغة أخرى، وكل المختصين يدركون التمييز بين ما يُنمى لسانياً من الداخل، وما ينمى من الخارج في لغة من اللغات، وكل اللسانيين يعرفون أن التنمية اللغوية من الداخل تنطلق من بنات العناصر اللسانية نفسها، مثال ذلك أن التعريب اللفظي الذي حدّد شروطه الفقهاء (فقهاء اللغة) العرب القدماء تحديداً واضحاً يُعدّ تنمية داخلية حتى لو كان اللفظ المعرب أجنبياً، وتعريف العرب بأن المعرب "هو ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعانٍ في لغتها"¹⁵ أو "أن تنفّوه به العرب على منهاجها"¹⁶، يشير إلى إدماجه وإخضاعه إلى ضوابط

تبدأ؟ ...

اللغة العربية، وحدّده أبو حيان في الارتشاف: "الأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام: قسم غيّرته العرب وألحقته بكلامها، فحكمُ أبنيته في اعتبار الأصلي والزائد والوزن حكمُ أبنية الأسماء العربية حكمُ أبنية الأسماء العربية الوضع، نحو درهم وبَهْرَج¹⁷، وقسم غيّرته ولم تلحقه بأبنية كلامها، فلا يُعتبر فيه ما يُعتبر في القسم الذي قبله، نحو آجَرَ وسِفْسِير¹⁸، وقسم تركوه غير مُعَيَّر، فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يُعدّ منها، وما ألحقوه بها عُدّ منها"¹⁹.

أيّاً كان الأمر، فإنّ المغرب الذي قد يطلق عليه أيضاً الدخيل إذا أمكن تهذيبه وفق الأصوات العربية والذوق والحس العربيين المؤلفين في اللغة العربية، وتكليفه بالكيفية التي تقتضيها قواعد اللغة العربية، فإنه يكون أكثر حظاً من الترجمة ليلتحق بالتنمية الداخلية، وأما إذا حافظ على بنيته الأعجمية التي أصبحت مع ذلك لفظة دخيلة، واستعصت على صياغة مواد انشقاقية منها كالفردوس، والقسطاس، والسجنجل، والنرجس، والصَّوْلَجَان، والسفرجل، والقرنفل،... فإن ذلك مما يدخل في التنمية الخارجية التي لا تخلو منها أية لغة مستعملة حضارياً في العالم، علماً بأن ليونة اللغة العربية ربما لا تمنع أحداً من أن يشتق ويقول: قَرْدَسَه، وقَسْطُسَه، وسَجْنَلَه، ونَرْجَسَه، وصَوْلَجَه، وسَفْرَجَه، وقَرْفَه،... لتبقى المشتقات مفتوحة لبناءات أخرى،...

– تراثنا اللغوي وصناعة المصطلح

ما قد لا يختلف فيه باحث معنا أن نؤكد ما أومأنا إليه آنفاً أن التنمية الداخلية في لغة كالعربية الثرية في تراثها بألوف من المصطلحات التي يمكن

لألفاظ معتبرة منها أن تعبّر عن مكنون ما غدت تفتقر إليه في تعابيرها الحديثة أمام شراسة لغات عصرية لم يُعدّ لنا اختيار لإتقانها والاستعانة بها لإثراء لغتنا الغنية الفقيرة، إذ من غير المنطقي أن نقلب ظهر المجنّ لكلمات عربية أصيلة جاهزة يمكن أن تُضفي دلالتها على ما حدّد من مصطلحات عصرية، ونلجأ إلى طرق أبواب لغات أخرى مع ما فيها من النفور والصعوبة والاختلاف "فَلْنَفْتَشْ" أولاً في تراثنا القديم عن جهود العلماء ذوي الاختصاص فيما استخدموه من المصطلحات العلمية، ما استعمله العرب من كلمات صالحة للاستخدام في العلوم، ثم نلجأ إلى وسائل الصياغة التي أقرها أيضاً ذوو الاختصاص من علماء اللغة قديماً وحديثاً للحصول على ما يعوزنا من مصطلحات جديدة، فإذا لم يسعفنا هذا ولا ذاك كان التعريب بشروطه آخر الحصون التي تلجئنا إليها الضرورة²⁰.

وأبواب التراث اللغوي العربي الهائل غير موصدة أمام أي إرادة عربية تلتفت إلى ذلك نظرياً وعملياً، فتراثنا اللغوي "قد عبر عن كل ما يشاهده الإنسان، وما يفكر فيه أو يحسه ويتناول أفراحه وأتراحه وصحته ومرضه، ووصف ظواهر الطبيعة ومكونات الأرض وطبقات الجو واتجاهات الرياح وهبوب الأنواء، وأحوال المياه في البحار والأنهار"²¹

وأما طُرُق "التّصنيغ" لصيغ جديدة تُحدّث لضرورات علمية وثقافية، فإنها مألوفة وديناميكية جداً، بل وديعة لسانياً في اللغة العربية، ولا تحتاج إلى تذليل، ومما تُحمد عقباه هنا أن علماء العربية لا يختلفون فيها لوضوحها وإقدام القدماء على ممارستها إجرائياً، وقد لخصها أبو علي الفارسي بقوله الشهير: "ما قيس على كلام العرب، فهو من كلام العرب"، ولذلك حين عوتب الزمخشري الذي خرق فترة الاحتجاج اللغوي، حيث

تبدأ؟ ...

كان لا يرى غضاضة في الاستشهاد بالفصحاء من الشعراء كأبي تمام قال: "إني أجعل ما يقوله بمثابة ما يرويه"²².

إن الفقلعيّين العرب القدماء تجاوزوا كل إشكال من إشكالات المعرب أو الدخيل الذي أصبح متداولاً تلوكه الألسنة العربية أو المتعربة، وقبل مجيء الإسلام، وحين صُنعت القواعد العلمية ضُبِطَت الفجوات التي تميز لفظة عربية من لفظة أعجمية، فهذا الخليل بن أحمد يطالعنا في عصر مبكر جداً من بداية طُفُوِّ اللسانيات العربية إلى الوجود وازدهارها بقوله: "وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف"²³، و"عنكبوت" أصلها عَنَكَبْتُ بدليل جمعها عناكب، وعندليب أصلها عَنَدَل بدليل جمعها عنادل، ولذا تصعّران على وزن "عُنَيْكَب" و"عُنَيْدَل"، ولعل قول الخليل التالي: "فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية مُعَرَّاة من حروف الذَّلَقِ أو الشَّفْوِيَّة"²⁴، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب، لأنك لست واحداً من يسمع كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية ألا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر،...

وأما الرباعي المنبسط، فإن الجمهور الأعظم منه لا يعرى من الحروف الذَّلَقِ أو من بعضها، إلا كلمات نَحَوّاً من عَشْرِ جِئْنَ شَوَادّاً، ومن هذه الكلمات: المسجد²⁵ والقسطوس²⁶ والقُداحس²⁷ والدعشوقة²⁸ ... وليس في كلام العرب دُعشوقة ولا جُلاهق، ولا كلمة صدرها (نر)، وليس في شيء من الألسن ظاء غير العربية، ولا من لسانٍ إلا التَّنَوُّرُ فيه تَنُّورٌ"²⁹.

ووسّع علماء اللسان العربي هذه النظرية الخليلية التي مهّدت بها السبل الرشيدة لمن جاء بعده، فإنك حين تتصفح معجم "الصحاح" تجد إسماعيل بن حماد الجوهري يشير عرضاً إلى طبيعة الكلمة العربية من غيرها: "الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب، إلا أن يكون معرباً أو حكاية صوت، نحو (الجُرْدَقَة)³⁰ وهي الرغيف، و(الجُرْمُوق) الذي يُلبَس فوق الحُفّ، و(الجرامقة) قوم بالموصل أصلهم من العجم، و(الجَوْسُق) القَصْر، و(جَلَّق) بالتشديد وكسر الجيم واللام موضع بالشّام، و(الجَوّالِق)، وعاء والجمع الجَوّالِق بالفتح والجوالِق أيضاً..."³¹، ومثل ما تقدم الجُلاهق (البندق)، والمنجنيق، وهي آلة ترمي بها الحجارة، وأصلها بالفارسية "من جى نيك" بمعنى ما أجودني، وهي مؤنثة، وقال العرب منها: "كُنّا نُجَنّق مرة ونُرشّق أخرى" حيث نحتوا أو عربّوا جملة كاملة في بناء واحد (منجنيق)، ثم راق لهم أن يشتقوا فعلاً، كأنما الاسم المعرب ينطبق عليه ما ينطبق على أي فعل يؤخذ من أحداث الأسماء بمصطلح سيبويه ومذهب البصريين، وُجِّعَ منجنيقٌ على مَنْجَنِيقات، غير أن سيبويه، وهو الحجة، قاسه على "فَنَعْلِيل"، ذاهباً إلى أن الميم من نفس الكلمة، لقولهم في الجمع "مجانيق" وفي التصغير "مُجَنِّيق..."

– سبل التنمية اللغوية في العربية

وإذا كنا أشرنا إلى ما أشرنا، فنحن واعون بما ألحنا إليه نية وقصدًا وعبرة، عسى أن نقنّدي بمن سبقونا، وننحو نحوهم، ومن جهة أخرى أردنا أن نقف على حقيقة اعتبار التعريب تنمية لسانية داخلية إلى جانب عوامل أخرى تشترك كلها في توليد المعاني الجديدة التي دأبت عليها العربية

تبدأ؟ ...

القديمة، وإذا لم يُعَدّ لنا اليوم حقّ في مسّ ماهو ثابت فيها، فلا أحد يمنعنا من الاجتهاد المخلص، لا الاجتهاد المغرض، لنولّد معاني ونصنع مصطلحات وفق الوسائل التقليدية المألوفة في اللغة العربية، فلا أحد يشاكس هيئة علمية لغوية أكاديمية إذا جنحت إلى وضع ألفاظ للتعبير بها عن كل اختراع علمي يناسبها، ولا أحد يجادلك في أن تشتق على هيئة ما اشتق العرب ما يعوزك من كلمات وُلِدَت معانيها، وتسرّبت بأصواتها الأجنبية إلى العربية، بل يعدّ الاشتقاق أهم وسيلة لتوليد المعاني وفبركة المصطلحات "إذ بواسطته نستطيع أن نولّد الكثير من المعاني، وأن نضع أسماء لكثير من الآلات، كما فعلنا في الدبابة والطيارة والسيارة والغوّاصة والهاتف والمذياع، فإنّ عزّ الاشتقاق ففي غيره مندوحة"³².

اللغة العربية التي قال فيها غوستاف لوبون: "إن اللغة العربية ذات أثر عميق في اللغات اللاتينية، وقد ألّف دوزي وإنجلمن معجماً من الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية، وتركت لغة العرب أثراً مهماً في فرنسة نفسها"³³ وغيره من المستشرقين الموضوعيين، لا تستعصي على ذي إرادة، وصاحب اطلاع على ما تكتنز في تراثها العلمي والأدبي، ونصها القرآني، إذا أراد أن يتّبع سُنَنها المعهودة في الخلق والابتكار لمئات وألوف من المصطلحات التي تشكو من فقرها أو انعدامها عربيتنا المعاصرة، وما يوجد بين ظاهرة ممتدة في سيرورة الزمن مما قد يبدو لنا تغييراً هو في واقع أمره لا يعدو أن يكون أكثر من فوارق ضئيلة بعضها يلاحظ ويؤثر نسبياً، وبعضها الآخر ربما لا يشعر به البتة، طالما أن الظاهرة هي ذاتها، وتقاوم من أجل البقاء والثبات، وهذا حال لغتنا العربية التي لم

تتغير فيها سبل تنميتها من الداخل إلا قليلاً، فنحن كلما زُمنّا ذلك، وجدنا أماننا تلك السبل جاهزة تحتاج فقط إلى تهيئة علمية أسوة بما سبق أن هُيِّءَ منها فيما سلف في علوم اللغة، والآداب، والفلسفة، والإدارة، والتاريخ، والبريد، والاستشفاء، والرياضيات، والفلك،...

وسبل التنمية اللغوية من الداخل، ولعل أهمها:

- 1- الاشتقاق.
- 2- النحت.
- 3- القياس.
- 4- المشتقات بأنواعها وصيغها.
- 5- المصدر الصناعي.
- 6- الوضع حقيقة ومجازاً.
- 7- التعريب.
- 8- الاستئناس بصيغة من الصيغ التي لا تنسجم مع ما تقدّم، وأعني بالاستئناس، بوجه أخصّ الاقتراض، وهو مثار جدل طويل بين المجمعين العرب، وأخشى ما يخشاه المرء في هذا النوع أنك قد تقترض كلمة أجنبية وتحاول أن تكيّفها مع الأصوات العربية، وربما أجهدت نفسك في البحث عنها داخل العربية دون طائل منك، فتقرّها بصورتها الأجنبية، وإذا بك تعثر على أصلتها في العربية أو تعلم من عشر عليها لاحقاً، مما يجعل الشيوخ يسود لهذه الكلمة أو تلك، وأشار غير واحد من المختصين إلى أن المصطلح الأجنبي قد لا يصل في أداء الغرض الدلالي ما يؤدّيه المصطلح العربي المباشر "على أنه كثيراً ما نجد المقابل العربي أكثر دقة وأقرب إلى المدلول العلمي للمصطلح من اللفظ الأجنبي المقابل"³⁴، وهذا رأي الدكتور دفع الله الترابي، وأما الدكتور جميل الملائكة، فيقول:

تبدأ؟ ...

"إن المصطلح الأجنبي قد لا يكون في كل الحالات موفقاً كل التوفيق في تأدية المعنى المراد به، وقد يكون مغلوطاً أصلاً، مما جعل بعض المجمعين العرب يقول: "لا يشترط في المصطلح أن يستوعب كل معناه العلمي"³⁵، والفكرة أقرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي.

9- النقل الدلالي، من الباحثين القدماء والمجمعين المحدثين من يتحفظ في المصطلح الناتج عما يمكن أن يُسمى بالنقل الدلالي، أي يُتقى على الدالّ الصوتي نفسه على أن يُضفى عليه مدلول جديد، لنجد أنفسنا أمام ما يُدعى بالمشترك، وهو كما أشرنا، "اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالةً على السواء عند أهل تلك اللغة، واختلف الناس فيه، فالأكثر على أنه ممكن الوقوع... والأكثر أيضاً على أنه واقع لنقل أهل اللغة ذلك في كثير من الألفاظ، ومن الناس من أوجب وقوعه، لأن المعاني غير متناهية، والألفاظ متناهية، فإذا وُزّع لزم الاشتراك"³⁶.

النقل الدلالي من أهم السبل التي عملت عملها القديم والحديث في تنمية اللغة العربية من الداخل تنمية آلية ومباشرة، ولا أحد يستطيع أن يقاومه أو ينكره، ومحاولة ردّه لا يعني إلا ضرب العربية في لبّها وصميمها، لأنك ستعطلّ أهم مؤلّد فيها، بل قد تلغي ثلثيها أو أكثر، لأن العربية ألفت التعبير بدالّ واحد على عدة مداليل، لم يعنها ذلك من أن تقول مثلاً:

– الحَدْس: الظن والتخمين، وهو يُحدَسُ أي يقول شيئاً برأيه.

– الحَدْسُ: الذهاب في الأرض على غير هداية، وقال راجزهم:

كَأَنهَا مِنْ بَعْدِ سَيْرٍ حَدْسٍ

حتى وإن كنا نشتم التقاطعات الدلالية بشكل من الأشكال، لكن ماذا نقول في اشتراك آخر مثل قول العرب:

- العجوز (لا يقال عجوزة بالتاء) المرأة الكبيرة.

- العجوز: الخمر لِعَتَّقَهَا أي لِقَدَمِهَا.

- العجوز: نصل السيف.

- العجوز: رملة بالدَّهْنَاء (موضع ببلاد تميم، النسبة إليه دَهْنَاوِي).

- أيام العجوز عند العرب خمسة أيام (صِنَّ، وصِنَّر، وأَخِيْهُمَا وَبَر، ومُطْفَى الجمر، ومُكْفَى الطُّعْن، ولربما قيل: هي سبعة).

ولك أن تتذكر ما تشاء من ألوف أو آلاف من الدوال التي تدل على أكثر من مدلول دون قلب ولا إبدال، ولا تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقصان في صوت من أصواتها، فلك أن تتأمل "العَيْن"، "النَّوَى"، "الرُّوْبَة"، "الأَرْض"، "الهِلال"،... أو سوى هذه الوحدات لتقف على شرعية النقل الدلالي الحديث أسوة بالنقل الدلالي القديم، ولا فرق،...

ولعل ما ذكره ابن فارس يوضح تبليغنا أكثر من تبليغنا نفسه، فمِمَّا ذكره بعد حديث مستفيض: "فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سُمِّي المؤمن بالإطلاق مؤمناً، وكذلك الإسلام والمسلم، وإنما عرفت منه إسلام الشيء، ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر، فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نافقاء اليربوع، ولم يعرفوا في الفِسْق إلا قولهم فَسَقَت الرُّطْبَة إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفِسْق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله -عزَّ وجلَّ- ومما جاء في الشرع الصلاة،

تبدأ؟ ...

وأصله في لغتهم الدعاء، وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود، وإن لم يكن على هذه الهيئة...³⁷. وهكذا بقية التحولات الدلالية الذاتية كالصيام، والزكاة، والحج، والعمرة، والجهاد،... وعلى هذا يقاس سائر ما لم يذكر من العلوم العقلية والنقلية، إذ مصطلحات الأصوات والنحو والصرف والعروض والبلاغة وحدها تمثل العجب العجاب من هذه التحولات الدلالية، والتي تُعدّ بالألوف.

وكان العلميون العرب (علماء اللغة) موقّنين غاية التوفيق لما أشاروا إلى الدلالة الثنائية في الدالّ الواحد، فالمعنى الأصلي للدال نفسه معنى لغوي، والمعنى المتحوّل إما شرعي إذا كان متعلقاً بالمصطلح الشرعي، وإما صناعي إذا كان يعني مجازاً لسانياً أو فلسفياً أو علمياً... الخ.

وهناك مجمعيون عرب محدثون حاولوا أن يفصلوا الموضوع فصلاً لا يخلو من اللبس، فبحسبهم أننا نختار اللفظة الأولى في حالة المترادفات، وهذا ما نصّت عليه إحدى ندوات المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي: "عند وجود ألفاظ مترادفة أو متقاربة في مدلولها ينبغي تحديد الدلالة العلمية الدقيقة لكل واحد منها، وانتقاء اللفظ العلمي الذي يقابلها، ويحسن عند انتقاء المصطلحات من هذا النوع أن نجتمع كل الألفاظ ذات المعاني القريبة أو المتشابهة الدلالة، وتعالج كلها مجموعة واحدة"³⁸، على أن نركّز على اللفظة التي يوحى جذرها "بالمفهوم الأصلي بصفة أوضح"³⁹.

في حين يرى لغويون محدثون آخرون أن توليد مصطلح بوساطة النقل الدلالي، وأفضّل أن أسميه التحوّل الدلالي، يؤدّي إلى نتيجة حتمية تؤول إلى الاشتراك اللفظي، فكلمة "سيارة" مثلاً كان يعني بها قديماً

القافلة، ولما تحولت دلاليًا في ذاتها إلى إطلاق آخر، صار لها معنيان، وهذا هو معنى الاشتراك اللفظي، وأما إذا استعمل المصطلح الأجنبي كما نستورده أو نقترضه في صورته الأصلية، فلا يكون أماننا إشكال الاشتراك اللفظي.

إن العربية حتى الوقت الراهن، ونحن نعبر العقد الأول من الألفية الثالثة، لا تتوفر على معجم دلالي تاريخي لألفي سنة على الأقل من العطاء، وهذا يصعب الاستئناس بترجيح مفهوم أصلي وآخر فرعي، أو مدلول سابق وآخر لاحق، إلا إذا نهضنا باللغة العربية التاريخية مثلما تنهض الشعوب الحية والمحترمة بلغاتها، وهذا لن يتحقق بين عشية وضحاها في ظل التفكك العربي المؤلم حالياً، ولكننا مع ذلك لا نفضل المصطلح الأجنبي، في ظل ما يكتنف المصطلح العربي، إلا انتقالاً حتى لا يكون المصطلح أماناً عائقاً لمسيرتنا الحضارية، وحركتنا التنموية، ومقابل هذا يجب أن نضبط شروطاً صارمة لأي مصطلح أجنبي حتى لا يختلط الحابل بالنابل، فعلماءنا الأقدمون، وعلى الرغم مما كان يثار في زمنهم من جدال بين الفقهاء واللغويين حول وجود كلمات أجنبية من عدم وجودها في القرآن الكريم، شتموا عن سواعدهم، وشحدوا عقولهم النيرة، وضبطوا الأدلة والمعالم التي تَقْفُك على معرفة عَجْمَة أي لفظة متداولة في اللغة العربية⁴⁰:

- 1- أن يصدر ذلك عن أحد العلماء الضليعين من أئمة العربية.
- 2- ألا يتوافق الاسم مع أحد الأوزان العربية.
- 3- إذا ورد اسم صدره أو مقطعه الأول "نر" فهو ليس بعربي.
- 4- إذا كان في آخر اسم زاي بعد دال (مهندز)، فذاك أجنبي.
- 5- إذا اجتمع في رسم جيم وصاد (جصّ)، فهو أجنبي.

تبدأ؟ ...

- 6- إذا اجتمع في اسم جيم وقاف (منجنيق)، فليس بعربي.
7- كما قال الخليل بن أحمد، أي أن يكون الاسم خماسياً أو رباعياً عارياً من أحد أصوات الدلافة (ب، ر، ف، ل، م، ن).

إن تحولات الاصطلاحات الدلالية تحوّل دائم وقويّ في تنمية أية لغة داخلياً، وذلك أولى وأشرف لها من أن تمدّ يدها إلى سواها سواء أُثريت وأُعطيَتْ أم مُنعتْ لأسباب لسانية بحثة.

إن لغتنا ورشة صناعية وضعت للفبركة والإنتاج بفضل أصواتها، ووحداتها الدالة، ولواحقتها وسوابقها، ومشتقاتها ومجازاتها، ولم يعد اللسانيون المحدثون ينظرون إلى لغة من اللغات تلك النظرة الرنّانية الميتافيزيقية للغات على أنّها تنقسم إلى لغات بدائية أو حسيّة أو شيء من هذا، ولغات أخرى حضارية شفافة مرهفة⁴¹.

ويجب أن نفكر ملياً في هذا التحوّل الدلالي كعامل من عوامل التنمية اللغوية من الداخل بأنه لا يحدث صدفة في تبدّل العلامة اللسانية في شق مدلولها، فتحوّل ألفوف من الألفاظ العربية من معنى قديم إلى معنى جديد لدليل على حركية اللغة من جهة، ومؤشر على اعتبارية الدال في كل حال، "وهو غير ملزم بعقد اجتماعي ثابت، وإلا بطل التحول من دلالة إلى دلالة ثانية وثالثة... وبالتالي تُستبعد الآراء المناهضة لمذهب التواضع والاصطلاح في اللغة"⁴².

وليس باطلاً أن يسودنا الاعتقاد بأن التحول الدلالي في اللغة العربية الحديثة "حدثاً جديداً كل الحداثة، بل هو ظاهرة من ظواهر اللغة العربية تاريخياً، وخاصيّة من خاصيّاتها آنياً، فهي لغة ماثلة أبداً في محور سكوني وآخر تطوري، وبعبارة أخرى فإن الوحدات الدلالية في

العربية وحدات دلالية مفتوحة لا مغلقة"⁴³، وكان سيويه العظيم في مدخل كتابه أشار، قبل غيره من المحدثين، على المستوى الإفرادي والتركيبى إلى شيء من هذا التحول دون بسطه.

وحتى لا نُفهم خطأ نرى أن نُنبّه بأن "المداليل المختلفة لدالّ واحد، كما هو الحال بالنسبة للفعل (وجد)، ربما لا تتم بالوحدة الأصلية للدالّ منعزلاً عما عداه من عناصر لغوية تعقبه أو تحيط به، فضلاً عن اكتفاء الدال كالفعل (وجد) هنا بعنصرين أو ثلاثة، مع اختلاف هذه العناصر: أهى اسمية أم حروف جرّ؟ ومعنى حرف (الباء) غير معنى حرف (على)"⁴⁴.

ومما تقدم من إثارات بشأن سبيل التنمية اللغوية من الداخل كطاقة لسانية خلاقة، وظاهرة فريدة تتميز بها اللغات للإنسانية، لا يعني أن اللغة العربية منزّهة أو آمنة عن أية تنمية خارجية، فكل لغة تفتح صدرها للكلمات الثقافية والفنية والحضارية والعلمية التي تنعدم فيها لانعدام الأسباب المهيئة لها لتخلفها عن مواكبة النهضة الشاملة بسبب بُعد متكلميها عن مسايرة ما يموج ويتحرك أمامهم في مجالات أصبح عسيراً، بل مستحيلاً عليهم أن يجاروها بلغة تفتقر إلى ألوف من المصطلحات التي تولد كل يوم بالمئات في المخابر، والاقتصاد، والبنوك، والاتصال، والجامعات، ومعاهد البحث،...

وأعتقد أنه بات مسلماً أن نستعين بالتنمية اللغوية في مستواها الخارجي على ألاّ نبالغ، وأن نكبح تفتحنا على المصطلح الأجنبي كلما وجدنا سبيلاً واضحاً ودقيقاً إلى مصطلح عربي أصيل، ولا بأس أن نعول على الترجمة كتنمية خارجية، وأن نجتهد في تعريب أي مصطلح أجنبي قبل تبنيه على علاته وفق الشروط التي نهجها علماؤنا القدامى.

تبدأ؟ ...

ويمكن أن نلتزم بالأصوات العربية وحدها نظراً للتقاطعات الصوتية التي أمست تفرض نفسها، وتؤثر تأثيراً مباشراً فيما يُفترض من كلمات لا سبيل لنطقها إلا بصوتها الأصيل، خاصة حين ينعدم في اللغة العربية صوت يمكن أن يعوّضه فونيتيكياً أو فونولوجياً أو رسماً بأي شكل من الأشكال، إذ سبق للغة كالفرنسية أن اقترضت بعض الحروف مثل الصامت W، ومن أصل جرمانى، وأي مانع لنا من أن نصلح رسمنا العربي انطلاقاً "من رسمه التاريخي دون أن نخلّ بجوهره، بحيث لا يشكّل خطراً على تراث اللغة العربية، مثال ذلك، فلماذا لا ندع الثاء عُقلاً من النقاط ما دامت صورتها لا تلتبس بالباء والياء والنون؟

ثم لماذا لا نكتب: V الموجودة في عاميتنا ولهجاتنا وكلمات أجنبية دخيلة على شكل "ف" دون إعجام، ولا التباس في صورته مع الفاء والقاف في المشرق، ولا حتى مع الفاء والقاف في الخط المغربي؟ وإذا كان لا بد من إعجام الثاء، فلماذا لا نرسم P اللاتينية على شكلها دون إعجام؟⁴⁵.

الهوامش

1. الأبله كما جاء في القاموس أنه حَمَلُ شَجَرٍ كبير ورقه كالطَّرَفاء (شجر، وقال سيبويه: هي واحد وجمع، وقيل: واحدتها طَرْفَةٌ) وثمره كالنَّبَق (تخفيف النَبَق بكسر الباء)، ولربما اتُّخِذَ منه دواء، فدخانها، كما ذكرت كتب اللغة يُسْقَطُ الأجنة سَرِيعاً، ويُطلى بالعسل لينقَى به الجروح الخبيثة، ويطلى به الإبل وغيرها، ويقال: قَطَرَنَ الشيء إذا طلاه بالقطران، وفيه لغتان:

أ- فتح القاف وكسر الطاء، وبهذه اللغة قرأ السبعة قوله تعالى: ﴿سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾.
 ب- كسُر القاف وكسر الطاء، وفي عاميتنا يُدْعَى بهذه الكلمة على شخص في حالة الغضب "الله يَعْطَلُ القَطْرَانُ" أي سَلَطَ الله عليك مرضاً خبيثاً، ولربما استعمل الدعاء في معرض الذم، ويراد المدح تبعاً لسياق المقام.

2. "الأصوات والإشارات" ص: 62 أ. كندراتوف ترجمة شوقي جلال.
3. "التحولات الجديدة للسانيات التاريخية" ص: 48-49، عبد الجليل مرتاض.
4. المرجع نفسه ص: 54-55.
5. هناك من يرفض استعمال "بنوي" مفضلاً عليها "بنوي" حيث يحذف الياء الأصل من "بنية"، وكل ما في الأمر أن العرب تقول: "البَيَّ" و"البَيِّ" و"البُنَيَّة" و"البُنَيَّة" ... وكله بمعنى واحد، ولا يمكن لأحد أن يخطئ الآخر إذا لم يخرج على الاستعمالات العربية.
6. "الألسنية (علم اللغة الحديث)" ص: 64-65 د. ميشال زكريا.
7. "الأصوات والإشارات" ص: 65-66.
8. نفسه ص: 66.
9. انظر ص: 67 وما بعدها من المرجع نفسه.
10. "الألسنية (علم اللغة الحديث)" ص: 161.

تبدأ؟ ...

11. *Dictionnaire des sciences du langage*, P20-21.

12. يراجع "التحولات الجديدة للسانيات التاريخية" ص: 55-56.

13. ينظر المرجع نفسه ص: 57.

14. *Eléments de linguistique générale*, P173 André Martinet

15. "المزهر" 268/1.

16. نفسه، ص: 268.

17. بخرج معرب من الكلمة الفارسية نبره، وهو الرديء من الدراهم.

18. سفسير فارسي معرب معناه السمسار.

19. المزهر 269/1.

20. مجلة كلية اللغة العربية (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) العدد التاسع سنة 1979

الرياض، ص: 55.

21. المرجع السابق ص: 56.

22. "طرق تنمية الألفاظ" ص: 25 د. إبراهيم أنيس.

23. "معجم العين" 55/1.

24. أصوات الذلق ستة، وهي: الراء، اللام، النون، الفاء، الباء، الميم.

25. العسجد: الذهب، واستعملها الأعشى في شعره.

26. بناء ثلاث للقسطاس والقسطاس، أي الميزان.

27. القداحس: الشجاع.

28. الدعشوقة: دويبة كالخنفساء.

29. "معجم العين" 59-58/1.

30. الغريب أيّ أعرف لأول مرة أن ما نطلق عليه في "القرية ELGARDA" التي تعني قطعة صغيرة من الخبز في بلدنا هو من "الجردة" الفارسية الأصل (راجع المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ص: 163 للجواليقي).
31. "الصحاح" 1454/4.
32. "لغة الضاد (المجمع العلمي العراقي)" ص: 49 سنة 1998.
33. "حضارة العرب" ص: 441 قوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر.
34. "لغة الضاد (المجمع العلمي العراقي)" ص: 216.
35. خلال ندوة أقامها المكتب المعني بالرباط سنة 1981.
36. "المزهر" 369/1.
37. "الصاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" ص: 79-80 أحمد بن فارس.
38. "لغة الضاد (المجمع العلمي العراقي)" ص: 218 سنة 1999.
39. نفسه، ص: 218.
40. راجع "المزهر" 270/1.
41. مجلة اللغة العربية ص: 208 عدد: 9 سنة 2003 إصدار المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر).
42. السابق ص: 210.
43. السابق ص: 210.
44. نفسه ص: 212.
45. "دراسة لسانية في الساميات واللهجات العربية القديمة" ص: 156-157 عبد الجليل مرتاض.

تبدأ؟ ...

دليل البحث

1. الأصوات والإشارات، أ. كندراتوف ترجمة شوقي جلال، ط: 1972، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
2. التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، عبد الجليل مرتاض، ط: 2005/3، دار هومة (الجزائر).
3. الألسنية (علم اللغة الحديث)، د. ميشال زكريا، ط: 1983/2، المؤسسة الجامعية للدراسات (بيروت).
4. المزهر، السيوطي، تحقيق جاد المولى وآخران، مطبعة عيسى البابي الحلبي (مصر).
5. طرق تنمية الألفاظ في اللغة، د. إبراهيم أنيس، مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة.
6. معجم العين، الخليل بن أحمد، تحقيق: د. عبد اله درويش، مطبعة العاني، بغداد.
7. المغرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، أبو منصور الجواليقي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: 1969/2، مطبعة دار الكتب (مصر).
8. الصحاح، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط: 1984/3، دار العلم للملايين، بيروت.
9. حضارة العرب، قوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر.
10. الصحابي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: د. مصطفى الشويحي، ط: 1963، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت.
11. دراسة لسانية في الساميات واللهجات العربية القديمة، عبد الجليل مرتاض، ط: 2005/2، دار هومة (الجزائر).
12. مجلة "اللغة العربية"، عدد: 9 سنة 2003، المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر).

13. مجلة كلية اللغة العربية (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، عدد: 9 عام 1979، الرياض.
14. مجلة "لغة الضاد"، سنة 1998، المجمع العلمي العراقي.
15. مجلة "لغة الضاد" سنة 1999، المجمع العلمي العراقي.
16. *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, Edition du Seuil, 1972, Paris.
17. *Eléments de linguistique générale*, André Martinet, Armand colin, 1970, Paris.